رسالة الصوفية ...

... الى المعلم

بقلم الطبيب الأديب الأستاذ النقاش

التصوف الإسلامي مدرسة من مدارس التعليم، ومرحلة من مراحل التطور منذ العصر الأول إلى الآن ، وقد كان بعض المؤرخين يستندون في استنتاجاتهم إلى تراجم المتصوفين من الصوفية والكلام عن منتجات قرائحهم ، ثم من بعد ذلك يبسط لقرائه صورة واضحة عن الحالة العلمية في العصر الذي يترجم له باعتبار أن مدرسة التصوف هي إحدى مظاهر التعليم العام.

وقد يظن البعض أن هذه الصفحة انطوت من تاريخ التعليم في بلاد المسلمين ، ولكن الذين يعرفون الحقائق لا يستطيعون أن ينكروا أن للتصوفة في هذا الجيل وفي جميع أنحاء العالم الإسلامي مدرسة ، وأنها تتابع إنتاجها وإن طغت عليها موجات التعليم العام

أما وقد أبيت إلا أن تتلقى رسالة الصوفي في خلوته إلى المعلم الأول في حجرته ، فاعلم وفقك الله أن الصوفية لا يختلفون من المعلم الأول بمقدار ما يختلف عنه مطربشاكان أم معمما ، ولا بمقدار ثقافته سواء أكان من حملة إجازة البكالوريا أم من حملة إجازة المعلمين ، ولكنهم يختلفون منه بالباس الوثيق للتربية العامة ، وهو الخلق ، ولا يمكن أن يكون خلق بغير دين فهم يختلفون بالدين أولا وآخراً

لما شرع المرحوم الأستاذ الشيخ عبد العزيز بك جاويش في إنفاذ مشروعه « محو الأمية أو التعليم الإلزامي » تناقشنا في هذا المشروع ثم انتهى النقاش إلى جدل على صفحات الصحف وماني فيه بعض من كانوا يدافعون عن رأي الأستاذ الفقيد بأنني عدو التعليم الإلزامي ، وعدو محو الأمية ، لأن في نشر التعليم الإلزامي ، وفي اختفاء الأمية قضاء على نفوذ الطرق الصوفية ، وكنت على ما يعرف المتصلون بالمرحوم الشيخ شاويش من أصدق الناس

إليه ، ومن أعرفهم بمكانته من الفضل ، ومنزلته من العلم والإخلاص ، وكنت أضحك كلما قرأت أو سمعت أنه يرميني بمعاداة التعليم الإلزامي ونحو الأمية إبقاء على نفوذ الطرق الصوفية وذلك لأن الطرق الصوفية لا ترتكز في نفوذها إلا على دعامتين : العقيدة ، والتعاليم : أما العقيدة فهي سناد المسلمين ، وأما التعاليم ، فهي وإن اختلفت وسائلها بين الجمهور ، إلا أنها تنتهي دائما إلى الثقافة أيا كانت .

كل ما كان بيني وبين المرحوم الشيخ شاويش من خلاف في مشروع التعليم الإلزامي هو ما صار إليه الحال من عطل طبقة المعلمين لكثرة العرض وقلة الطلب ، فمدارس المعلمين تخرج جملة الكفاءة ، وكل منهم يعتقد أنه وصل إلى نهاية تلزم الحكومة أن تعوله ، والحكومة تضيق بمن لديها من هذا النوع من المعلمين ، وهم فوق حاجتها كما ظهر أخيراً .

والآن ، وعدد جملة الكفاءة الذين لا عمل لهم من متخرجي مدارس المعلمين منذ سنة ١٩٢٩ إلى الآن يبلغ زهاء الأحد عشر ألفا ، لا عمل لهم ، فقد اضطرت وزارة المعارف إلى إلغاء مدارس المعلمين إلا النذر اليسير تحت تأثير هذا التضخم

وأذكر أن حضرة صاحب المعالي علي ماهر باشا قال لي في يوم ما : « إنك كنت في نقدك لمشروع التعليم الإلزامي منجما »

وليس معنى هذا أني عدو للتعليم الإلزامي ، ولا أني أكره عدو الأمية ولا أن نفوذ الطرق الصوفية يهدد بالضياع فيما لو عم نور التعليم الإلزامي أرجاء البلاد ! بالعكس ، فإن خاصة إخواننا في الله الذين يحفظون الأوراد والأحزاب والذين يتولون الإرشاد هم من المعلمين أو من العلماء ولنعد إلى ما كنا فيه من حديث .

وإذا انتفع الصوفية إلى مساعدة التعليم الإلزامي فانما هم في ذلك عاملون بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أخرج ابن عساكر عن ابن ثعلبة . قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ادفعني إلى رجل حسن التعليم ، فدفعني إلى أبي عبيدة بن الجراح ثم قال : « دفعتك إلى رجل يحسن تعليمك وأدبك » . وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى على طوائف من المسلمين فيرأيتم قال : « ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ، والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة » ثم تولى فقال قوم من ترونه عنى بهؤلاء قال « الأشعريون » فلما بلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ذكرت قوما

بخير وذكرتنا بخير ، ما بالنا نقابل بالمعروف جيراننا ، لينفقهم ولبعلمهم ولينذرهم وليأمرهم وينهوهم ولينعلمن قوم من جيرانهم ويتعلمون ويتفقهون أولا لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا ، فقالوا يارسول الله أنتفقد غيرنا ، فأعاد قوله عليهم وأعادوا قولهم أنتفقد غيرنا ، فقال ذلك أيضا ؛ فقالوا أمهلنا سنة فأمهلهم سنة ليفقههم ويعلمهم ويعظهم .

من هنا نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى التعليم إلزاميا قبل أن يفكر فى ذلك أحد ، ولولا ذلك لما كانت بعوثه التى أوفدها لتعلم الناس القرآن وتفقههم فى الدين .

وتذخر كتب السنة بأنباء المصابيح التى نثرها رسول الله صلى الله عليه وسلم من صحبه بين القبائل لتعليم الناس الدين والقرآن . فمنهم مصعب بن عمير ، وقد صحب الذين بايعوا الرسول فى البيعة الأولى مأمورا منه أن يقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين ، ومنهم معاذ بن جبل ، وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم كثير .

وإذن فالتعليم الإلزامى وتعاونية الأمة من الأعمال الأولية الواجبة فى الإسلام وإذن فهى كذلك من أعمال الصوفية .

وإذا علمت أن المحضرات الليلية التى يعقدها الخلفاء فى القرى هى مدارس ليلية لتفقه فى الدين وإصلاح المعوج من الأخلاق بين روادها من المسلمين ، أيقنت أن الصوفية لم يقصروا فى عصر من العصور فى القيام بواجبهم نحو التعليم بصورة من الصور التى تناسب مع نشأتهم .

وإنى آمل من أعماق نوائى وأدعو الله والله كفيل بأن يستجيب دعائى أن تكون هذه المجلة منهاجا صالحا تصل تعاليمه إلى أعماق نفوس رجال التعليم الإلزامى وأن يصبح المعلم الأول المثل الصالح فى وضع الحجر الأول فى بنيان مجد الأمة .

وقبل أن أختتم كلمتى هذه أؤكد لك أننى لا أحفل من المعلم الأول إلا بدينه فبذل كل شىء فمن كان منهم ديناً أو متدينا أثرته تعاليمه وآتت أكلها شهياً .

محمد الفتيحى العفناوى

أمثال إسبانية

كلما كبر الخاطب صغرت الخطيبة

الزوجة الصالحة من صنع الرجل الصالح .

من اشترى ماليس بحاجة إليه لا يلبث أن يبيع ما هو بحاجة إليه

إنتاج ثلاثة يتعاونون، أعظم من إنتاج ستة يعملون كل بمفرده